

من تراث الكوثري

(٥٠)

لحاج النظر في سيرة الإمام زفر رضي الله عنه



بقلم

محمد زاهد بن الحسين الجبوري

وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتركة - خلف الجامع الأزهر الشريف ق : ٨٤٧-٨١٢

من أنباء الكوثور

(٥)

لحاح النظر في سيرة الإمام زفر رضي الله عنه

بقلم

محمد أحمد الدينوري

وكيل المنيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

حقوق الطبع محفوظة



الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ مسم الميقات - خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٨٤٧-٨٤٠

مكتبة جامعة القاهرة

(٥٠)

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فقه في الدين من أراد به خيراً ، ووفقه لصالح العمل وزاده رفعة وقدر ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .
أما بعد فإن الامام المبجل جيلاً بعد جيل ، زفر بن الهذيل رضى الله عنه من كبار أئمة الاجتهاد في الفقه الاسلامي ومن أقدم أصحاب فقيه الملة أبي حنيفة النعمان وفاة ، وأحدهم قياساً ، وأذكاهم فؤاداً ، وأدقهم تفريعاً ، وأجودهم نظراً ، حتى تراه يقيم مذهبا فقهياً مقام مذهب فقهي متأصل في نفوس أهل البصرة ، بأفظاره الدقيقة ، ومناظراته الحكيمة ، فمثل هذا الامام الدقيق النظر ، الواسع القريحة لا يجوز اهمال أمره .

ولذا أقترح على بعض اخواننا الأعزاء الأفاضل ، أن أكتب كلمة في ترجمة هذا الامام العظيم . وقد سبق أن ترجمت للامامين الجليلين محمد بن الحسن وأبي يوسف - رضى الله عن الجميع - فوافقت على اقتراحه وكتبت هذه الرسالة الوجيزة في ترجمته ذاكرآ فيها موجز أحوال هذا الامام الجليل وسميتها (لمحات النظر في سيرة الامام زفر) رضى الله عنه ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ومستتهضة لهمم الاخوان في الاستزادة من معرفة أحوال أئمة هذا الشأن ، ومن الله التوفيق والتسديد .

نسب الامام زفر وميلاده

هو الامام المجتهد المطلق المقدم بين أصحاب أبي حنيفة أبو الهذيل زفر العبدي البصري ابن الهذيل بن (زفر بن الهذيل بن) قيس بن سليم ابن مكمل بن قيس بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجر ابن جندب بن الضبر بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان على ما ساق ابن خلكان نسبه



في وفيات الأعيان تبعا للواقدي في غير ما زدته بين قوسين تعويلا على رواية أبي بشر الدولابي كما سيأتي . وفيما ساق أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان بعض مخالفة لذلك .

وقد ترجم لزر أبو الشيخ في (طبقات المحدثين بأصبهان) - وهي محفوظة بظاهرية دمشق - وأبو نعيم في تاريخ أصبهان - وهو مطبوع في لندن .

ولد الامام زفر بن الهذيل في أصبهان سنة ١١٠ هـ في عهد ولاية أبيه هناك ، وكادت وفاته بالبصرة سنة ١٥٨ هـ في شهر شعبان فيما ذكره ابن خلكان فتكون وفاته قبل وفاة المنصور العباسي بأربعة أشهر لأنه توفي في ٧ ذى الحجة من السنة ، وشذ يعقوب بن شيعة فقال توفي زفر في أول خلافة المهدي بن المنصور المذكور ، فتابعه من تابعه لكن الجمهور على الرواية الأولى ، وأسند الصيمري الى يعقوب ابن شيعة السدوسي أنه قال : (زفر بن الهذيل عنبري من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث وتظر في الرأي فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة وأوصى الى خالد بن الحارث وعبد الواحد ابن زياد وكان أبوه الهذيل يلي الأعمال ، ومات وهو والي أصبهان ، وكان أخوه صباح بن الهذيل على صدفة بن تميم ، وزفر هو زوج أخت خالد بن الحارث ومات في أول خلافة المهدي سنة ثمان وخمسين ومائة) . وأول خلافة المهدي منتصف ذى الحجة من السنة بعد وفاة والده أبي جعفر المنصور بسكة سابع ذى الحجة فلا تكون وفاة زفر في أول خلافة المهدي ما دامت وفاته في شعبان من السنة كما سبق ، وسأعيد الكلام في وفاته في آخر هذه الرسالة ان شاء الله تعالى .

قال ابن أبي العوام حدثني محمد بن أحمد بن حماد عن زكريا ابن خلاد الساجي ثنا الأصمعي قال داود بن يزيد المهلب^(١) عن أبيه :

(١) وفي الأصل حاتم وهذا والد يزيد حفيد المهلب ، وصاحب الحكاية هو يزيد بن المهلب مباشرة فوهم في الاسم أحد الرواة ، والحفيد لم يلحق

فقال لابنه مغلذ : استأذن لى على أبيك ، فاستأذن له عليه فدخل فقال : السلام عليك أيها الأمير قدرك أعظم من أن يستعان عليك أو يستعان (قال جاء زفر بن الهذيل الى يزيد بن المهلب وهو فى حبس الحجاج بك وقد حملت خمسين حمالة وقد قصدتك • فقال : قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها • فقال زفر : والله لا أقبل منها شيئا • فقال له يزيد ولم ذلك ؟ قال انى بذلت لك من وجهى أكثر مما بذلت لى من مالك • فخرج ولم يقبل منه شيئا • قال ابن أبى الصوام : قال أبو بشر (الدولابى) : زفر بن الهذيل هذا هو جد زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبى حنيفة أه) • والمهالبة فى عهد الدولة الأموية كانوا كالبرامكة فى الدولة العباسية فى الجود وعطو المنزلة ، وحال يزيد بن المهلب فى الجود فى تاريخ ابن خلكان وتاريخ ابن كثير وغيرهما • وكان ما بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب هذا ساء جداً حتى حبسه الحجاج على خلاف رضا عبد الملك ، وهو وجود هذا الجود وهو فى الحبس ، وهذا ما لا نظير له بين الأجواد ، وعدم قبول زفر هذا البذل يدل على شهامته البالغة بعد أن رأى أريحية ابن المهلب هذه • وخالد بن الحارث المذكور فى كلام يعقوب بن شيبه من بنى العنبر ومن الحفاظ الثقات • وقال أبو نعيم الاصبهاني فى تاريخ اصبهان : (كان الهذيل والد زفر بأصبهان فى خلافة يزيد بن الوليد ابن عبد الملك وكان ينزل قرية بزاءان وكان له ثلاثة بنين : الكوثر وهرثة وزفر أه) • ولم يستوف أبو نعيم ذكر اخوانه كما رأيت • وقد سبق فى كلام يعقوب بن شيبه ذكر صباح ابن الهذيل فى عداد اخوة زفر والله أعلم •

اتصال زفر بابى حنيفة

قال الصيمرى : أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدى قال أخبرنا أبو بكر الدامغانى الفقيه قال أخبرنا الطحاوى قال أخبرنا محمد بن عبد الله

الحجاج بل المحبوس فى حبس الحجاج هو الابن وقد فر من الحبس وتولى الولاية بدل الحجاج عند وفاته واستعاد منزلته التى كان أضعافها الحجاج (ز)



ابن أبي ثور قال أخبرني محمد بن وهب قال : (كان سبب انتقال زفر الى أبي حنيفة أنه كان من أصحاب الحديث . فنزلت به وبأصحابه مسألة فأعيتهم فأتى أبا حنيفة فسأله عنها ، فأجابه في ذلك فقال له من أين قلت هذا ؟ قال : لحديث كذا وللقياس من جهة كذا . ثم قال له أبو حنيفة : فلو كانت المسألة كذا ما كان الجواب فيها ؟ قال فكنت فيها أعيا مني في الأول ، فقال - الجواب فيها كذا من جهة كذا . ثم زادني مسألة أخرى وأجابني فيها وبين وجهها . قال : فرحت الى أصحابي فسألتهم عن المسائل ، فكانوا فيها أعمى مني فذكرت لهم الجواب ، وبيئت لهم العلل فقالوا من أين لك هذا ؟ فقلت من عند أبي حنيفة . فصرت رأس الحاقة بالثلاث المسائل . ثم انتقل الى أبي حنيفة فكان أحد العشرة الأكابر الذين دونوا الكتب مع أبي حنيفة أهـ) . وساق ابن فضل الله العسرى في (مسالك الابصار) هذا الخبر بنصه بطريق الطحاوي .

اقوال اهل العلم في زفر

قال الصيمري : أخبرنا أبو عبد الله المرزباني قال حدثنا أحمد ابن محمد المسكي قال حدثنا ابن أبي خيثمة عن أبي الحسن المدائني قال : زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة عنبري . وقال أيضا : أخبرنا المرزباني قال حدثنا الحسن بن محمد المخرمي قال حدثنا محمد بن عثمان ابن أبي شيبة قال : سألت أبي وعمي أبا بكر عن زفر فقالا : كان زفر من أفقه أهل زمانه قال أبي : وكان أبو نعيم - يعني الفضل بن دكين - يرفع زفر ويقول كان نبيا فقيها .

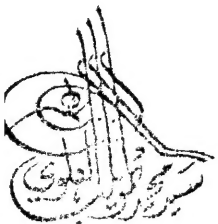
قال وحدثنا أبو الحسن علي بن الحسن الرازي قال حدثنا أبو عبد الله الزعفراني نزيل واسط قال حدثنا أحمد بن أبي خيثمة قال حدثنا سليمان ابن أبي شيخ قال حدثني عمرو بن سليمان العطار قال كنت بالكوفة أجالس أبا حنيفة فتزوج زفر فحضره أبو حنيفة فقال له : اتكلم . فخطب فقال في خطبته : هذا زفر بن الهذيل وهو امام من أئمة المسلمين وعلم

من أعلام الدين في حسبه وشرفه وعلمه • فقال بعض قومه : ما يسرنا أن غير أبي حنيفة خطب حين ذكر خصاله ومدحه ، وكره ذلك بعض قومه وقالوا له - حضر بن عمك أشراف قومك ونسأل أبا حنيفة أن يخطب؟! فقال لو حضرني أبي لقنمت أبا حنيفة عليه أهـ (١) وكفى في معرفة منزلة زفر في الفضل قول أبي حنيفة هذا فيه • وقال الصيمري حدثنا أبو الحسن العباس بن أحمد بن الفضل الهاشمي قال حدثنا أحمد بن محمد المسكي قال حدثنا علي بن محمد النخعي قال حدثنا إبراهيم بن اسحاق قال حدثنا علي بن مندر عن الحسن بن زياد قال : كان زفر وداود الطائي متواخين فاما داود الطائي فترك الفقه وأقبل على العبادة وأما زفر فانه جمع الفقه مع العبادة ، ثم ذكر الصيمري بسنده قدوم زفر البصرة يزور داود الطائي رحمهما الله •

وساق الصيمري بطريق علي بن محمد النخعي عن محمد بن علي ابن عفان قال حدثنا وليد (٢) بن حماد عن الحسن بن زياد قال : ما رأيت أحداً يناظر زفر إلا رحمته قال وقال زفر : اني لست أناظر أحداً حتى يقول : قد أخطأت ، ولكن أناظره حتى يجن قيل وكيف يجن ؟ قال : يقول بما لم يقله أحد •

وقال الصيمري أيضاً أخبرنا عمر بن إبراهيم المقرئ قال حدثنا مكرم بن أحمد قال حدثنا أحمد بن محمد قال حدثنا مليح بن وكيع قال سمعت أبي يقول : كان زفر شديد الورع حسن القياس قليل الكتابة يحفظ ما يكتبه • وقال : أخبرنا عمر بن إبراهيم قال حدثنا مكرم قال حدثنا أبو خازم القاضي حدثنا ابن أبي عمران قال : كان زفر من بلغنبر من بيت شريف منهم وكانت أمه أمة فكان وجهه يشبه وجوه العجم لأمه • ولسانه يشبه لسان العرب قال فحضر مجلس الحاج بن أراطة -

(١) ومثله عند ابن أبي العوام عن أبي بكر محمد بن جعفر بن اعين البغدادي عن يعقوب بن شيبه بن الصلت (السدوسي) عن سليم ابن منصور عن عمرو بن سليمان العطار علي حد سواء (ز) •
(٢) هو ابن أخي الحسن بن زياد (ز) •



وكان يتولى القضاء بالكوفة وكان يغلب عليه البذاء وكانت النخع تفضزه
 في نسبه - فتكلم زفر فأخذ المجلس فملأ قلب الحجاج فالتفت اليه
 فقال : أما اللسان فلسان عربي ، وأما الوجه فليس وجه عربي . فقال
 زفر : أما أنا فقد قبلني قومي . وفي رواية ابن أبي العوام عن الطحاوي
 عن ابن أبي عمران : (دخل زفر وأبو يوسف على حجاج بن أرطاة فجرت
 مسألة فقال الحجاج لزفر أما اللسان فعربي وأما الصورة فندل
 على غير ذلك فقال له زفر أما أنا فيقبلني قومي وكان غضبا من بني تميم ،
 وكان الحجاج يطعن في نسبه فاستد ذلك عليه واسكنه ثم ناظره أبو يوسف
 فقطعه فلما قاما قال لحاجبه لا يخل هذا على بعد) .

وقال ابن أبي العوام حدثنا أبو معمر محمد بن أحمد بن خزيمة
 البصري قال ثنا عباس بن محمد بن حاتم قال سمعت يحيى بن معين
 يقول : زفر صاحب الرأي ثقة مأمون سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين
 وذكر له زفر فقال : كان ثقة مأمونا . وجعل يعظم أمره وهذه الدار التي
 فيها الجبان دارهم قلت فكيف وقع الى البصرة قال : في ميراث له
 فتشبت به البصريون وقالوا حدثنا فأقام فيهم^(١) . وقال ابن أبي العوام
 أيضا حدثني أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد (الدولاني) قال سمعت
 العباس ابن محمد الدوري يقول سمعت يحيى بن معين يقول ثم ذكر
 مثله وزاد قال يحيى بن معين سمعت أبا نعيم يقول : زفر بن الهذيل من
 خيار الناس . وأراني أبو نعيم منزل زفر بالكوفة في جبانة كندة في
 وسط الجبان وجعل أبو نعيم يثنى عليه . وبه الى أبي بشر عن يعقوب
 ابن اسحاق بن أبي اسرائيل حدثني محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة
 حدثني أبي ثنا ابراهيم بن المغيرة قال قيل لو كعب بن الجراح تخلف
 الى زفر ؟ فقال غردتمونا عن أبي حنيفة حتى فات فتريدون أن تغرونا
 عن زفر حتى فحتاج الى أبي أسيد وأصحابه .

(١) لوف رحلتان الى البصرة احدهما في حياة الامام عثمان بن مسلم
 البتي وثانيتهما بعد وفاة أبي حنيفة فاستقر بها (ز) .

وبه الى أبى بشر سمعت محمد بن مقاتل قال سمعت أبا نعيم الفضل
ابن دكين يقول قال لى زفر بن الهذيل : أخرج الى حديثك حتى أغربله
لك . وقال الذهبي : زفر ابن الهذيل العنبري أحد الفقهاء والزهاد
صدوق ، وثقة غير واحد وابن معين أ ه .

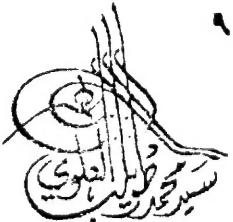
وقال ابن حجر : ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان متقنا حافظا
لم يسلك مسلك صاحبيه وكان أقيس أصحابه وأكثرهم رجوعا الى الحق
توفى بالبصرة فى ولاية أبى جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو فى حديث
ابن أبى الهيثم أ ه . وقد أسقط ابن حجر بعض كلمات من كلام
ابن حبان .

وقال ابن عبد البر : كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة
فى الحديث أ ه . وقد ترجم له فى (الاتقاء) ومع ذلك كله يوجد
من يتكلم فيه وسنذكر ذلك فى فصل خاص ان شاء الله تعالى للفت
النظر الى مواضع العبرة فى كلام المتعنتين .

بعض ما قيل فى الموازنة بين زفر وأبى يوسف

قال ابن العوام حدثنى محمد بن أحمد بن حماد (الدولابى)
قال سمعت محمد بن شجاع الثلجى أبا عبد الله قال سمعت بعض البصريين
يقول لما قدم زفر البصرة لقوه فسألوه فأعجبوا به فبلغه أنهم قالوا :
ما رأينا مثل زفر فى الفقه هو أعلم الناس . فقال زفر وبلغه ذلك : كيف
لو رأيتم أبا يوسف أ ه ؟ . وحدث عن الطحاوى عن ابن عمران عن محمد
ابن سلمة البلخى عن شداد قال سمعت زفر يقول : يعقوب - يعنى
أبا يوسف - أفقه من أتى أ ه .

وهذا وذاك يكون زفر فضل أبا يوسف على نفسه رحم الله تلك
النفوس الطاهرة ما كان لهوى النفس سلطان عليهم ، وكافت خدمتهم
فى العلم باخلاص لله وفى الله فبارك لهم فى علومهم . وما غرهم ثناء
الناس عليهم بل وقفوا موقف اتهام النفس نفعا الله بعلومهم .



ومما يروى في تفضيل زفر على أبي يوسف ما حدثه ابن أبي العوام عن الطحاوي عن أبي خازم عبد الحميد القاضي أنه سمع بكراً العمى يقول سمعت محمد بن ساعة يقول عن محمد بن الحسن قال : حضرت زفر وأبا يوسف يتناظران فكان أبو يوسف يقهره بكثرة الرواية عن أبي حنيفة والأخبار فإذا صار إلى المقايضة قهره زفر أ هـ . وأسند عن أبي بشر عن أحمد بن القاسم حدثني أبو حفص المروزي عن بشر بن يحيى عن خالد بن صبيح قال : رحلت إلى أبي حنيفة فنعى إلى في الطريق فدخلت مسجد الكوفة فإذا الناس كلهم على زفر بن الهذيل وعند أبي يوسف رجلان أو ثلاثة أ هـ . لعل هذا كان في مبدأ الأمر ، ثم علا شأن أبي يوسف بكثرة الآخذين عنه بحيث لا يلحقه لاحق ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومما ذكره ابن أبي العوام بسنده إلى الفضل بن دكين : كان زفر يجلس إلى اسطوانة وأبو يوسف بجذائه وكان زفر يلبس قلنسوة بيضاء فخمة فكانا يتناظران في الفقه وكان زفر ركيماً جيد اللسان وكان أبو يوسف يضطرب في مناظرته فربما سمعت زفر يقول لأبي يوسف أين تفر ؟ هذه أبواب كندة مفتحة فخذ في أيها شئت أ هـ . وأبواب كندة أبواب لقبائل كندة في الكوفة معروفة ، ووقع في بعض النسخ (أبواب كثيرة) بدل أبواب كندة والمعنى صحيح في اللفظين ، ولفظ الصيمري يسنده إلى محمد بن ساعة : (كان زفر يستند إلى اسطوانة وكان رجلاً ركيماً فينتصب فلا يزول وكان أبو يوسف إذا ناظره يكثر الحركة حتى يجيء فيجلس بين يديه أو قال بالقرب منه فكان زفر يقول إن هذه أبواب كندة فإن أردت أن تفر فخذ في أيها شئت) .

وذكر عن وكيع ما نصه : (لما مات أبو حنيفة أقبل الناس على زفر فما كان يأتي أبا يوسف إلا نفر يسير النفسان والثلاثة) . فكان جو الكوفة صفاً لأبي يوسف بعد انتقال زفر إلى البصرة ، بالنظر إلى هذه الروايات ، على أنه ليس بقليل في الروايات ما يفضل جانب أبي يوسف ؛ منها كون أبي يوسف أوسع صدراً بالتعليم من زفر ومنها ما ساقه الخطيب بطريق حماد بن أبي حنيفة أنه قال : (رأيت أبا حنيفة

يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يجادلان في مسألة فلا يقول أبو يوسف قولاً الا أفسده زفر ، ولا يقول زفر قولاً الا أفسده أبو يوسف الى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها على فخذه زفر وقال : لا تطمع في رياسته ببلدة فيها أبو يوسف . قال وقضى لأبى يوسف على زفر) . وفى معناه ما ذكر الخطيب بسنده عن عبد الرزاق بن همام عن محمد بن عمار أنه قال : (رايت أبا يوسف وزفر يوما افتتحا مسألة عند أبى حنيفة من حين طلعت الشمس الى ان فوذى بالظهر ، فاذا قضى لأحدهما على الآخر ، قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر حين فوذى بالظهر . فقام أبو يوسف ، قال : فضرب أبو حنيفة على فخذه زفر وقال : لا تطمعن في الرياسة بأرض يكون هذا بها) .

وحضور الأستاذ في المناظرة بين تلميذه هكذا ومصارحته لها بالصواب والخطأ طريقة بديعة في التدريب على المناظرة في العلم ومنهج رائع في شحذ الالهام وتنمية الملكات ، وعلى كل حال هما كانا كفرنسي رحمان حتى ان أبا حنيفة قال يوما : (أصحابنا هؤلاء سنة وثلاثون رجلاً ، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ؛ ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار الى أبى يوسف وزفر) كما أخرجه الخطيب في تاريخه بسنده ، وهذا شهادة من الامام الأعظم في حقها أنهما بلغا أعلى درجات الاجتهاد عندما نطق بهذا الحكم ، وساق أيضاً بطريق اسماعيل بن حماد : (كان أصحاب أبى حنيفة عشرة : أبو يوسف ، وزفر ، وأسد بن عمر والبجلي ، وعافية الأودي ، وداود الطائي ، والقاسم بن معن المسعودي ، وعلى بن مسهر ، ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، وجبان ومندل ابنا على العنزي . ولم يكن فيهم مثل أبى يوسف وزفر) وهؤلاء العشرة هم اكابر أصحاب أبى حنيفة الذين دونوا الفقه معه كما سبق في رواية الصيمري عن الطحاوي .

وفي طبقات على القارى : قال شداد بن حكيم سألت أسد بن عمرو :



أبو يوسف أفقه أم زفر ؟ فقال زفر أروع • قلت : عن الفقه سألتك فقال : يا شداد بالورع يرتفع الرجل • ومثله في مناقب الكردي ، وهذان الامامان العظيمان اللذان هما كترسى رهان عند أهل النقد يقول عنهما الصيمري ما رواه عن عبد الله بن محمد عن أبي بكر الدامغانى عن الطحاوى عن ابن أبى عمران عن وليد بن حماد ابن أخى الحسن بن زياد قلت لعلى الحسن بن زياد : رأيت زفر وأبا يوسف عند أبى حنيفة فكيف رأيتهما قال : رأيتهما كعصفورين انقض عليهما البازى أ ه • وحكى القارىء عن أبى مطيع : زفر حجة الله على الناس فيما بينهم يعملون بقوله وأما أبو يوسف فقد غرته الدنيا بعض الغرور ، ومثله في مناقب الكردي ، هكذا يكون كلام الناس فيمن ولى الأحكام ، مع أنه لا تصلح أحوال الناس الا بقضاة عدول ، فمن تولى القضاء وعدل فهو القائم بأشق الأمرين فيستحق الاجلال ولقد صدق ابن الوردي حيث قال :

ان كل الناس أعداء لمن ولى الأحكام هذا ان عدل

ولذا طال لسان بعض الناس فى أبى يوسف مع ما شهر عنه من العدل فى الأحكام •

وقد حكى جماعة عن محمد بن عبد الله الانصارى انه قال : أكره زفر على أن يلى القضاء فأبى وهدم منزله واختفى مدة ثم خرج واصلىح منزله ثم هدم ثانيا واختفى كذلك حتى أغفى عن تولى القضاء رحمه الله •

بعض شيوخ زفر والآخذين عنه

تفقه زفر على الامام الأعظم أبى حنيفة وجالسه أكثر من عشرين سنة ، وفى المناقب الكردية (٢ - ١٠٤) عن زفر (جالست أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح وأشفق للناس منه وأنه كان يبذل نفسه لله تعالى أما عامة النهار فانه كان مشغولاً بالمسائل وحلها وتعليمها وما يعرض عليه من النوازل وجوابها فإذا قام من المجلس عاد مريضاً أو شيع جنازة أو واسى فقيراً أو واصل أخاً أو سعى فى حاجة ، فإذا كان الليل خلا للتلاوة والعبادة والصلاة فكان هذا سبيله حتى توفى)

فنعم الشيخ ذلك الشيخ ونعم التلميذ ذلك التلميذ . ومع تفقه زفر عليه أكثر رواية الحديث عنه أيضا . وقد ذكر أبو سعد السمعاني في الأنساب عند ذكر الجصيني أحمد بن بكر بن سيف : (ثقة يروى عن أبي وهب محمد ابن مزاحم المروزي عن زفر عن أبي حنيفة كتاب (الآثار) وروى عن غيره فأكثر أ هـ) وذكر الحاكم في (١٦٤) من كتابه (معرفة علوم الحديث) « ان لزفر نسختين في الحديث . احدهما رواية أبي وهب والأخرى رواية شداد بن حكيم » . ومرويات زفر في الحديث بأسانيده مسرودة في كثير من الكتب كتاريخي أصبهان لأبي الشيخ وأبي نعيم وتاريخ الخطيب وغيرها .

ومن شيوخ زفر في الحديث سليمان بن مهران الأعمش ، ويحيى ابن سعيد الأنصاري ، ومحمد بن اسحاق صاحب المغازي ، ويحيى ابن عبد الله التيمي ، واسماعيل بن أبي خالد ، وأيوب السختياني ، وزكريا ابن أبي زائدة ، وسعيد بن أبي عروبة ، وغيرهم من شيوخ الحديث في الأمصار ، وفي سرد أسمائهم طول وممن أخذ عن زفر عبد الله بن المبارك ، وشقيق بن ابراهيم ، ومحمد بن الحسن ، ووكيح بن الجراح ، وسفيان ابن عيينة ، وأبو علي عبيد الله بن عبد المجيد البصري — من أصحاب النبي الذين اتقلبوا اليه . ومحمد بن عبد الله الأنصاري القاضي — من ولد أنس بن مالك ، وهلال بن يحيى المعروف بهلال الرأي ، والحكم ابن أيوب ، وشداد بن حكيم ، والنعمان بن عبد السلام ، ومالك بن فديك ، وأبو عاصم النبيل الضحاك بن مخلد ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وأبو وهب محمد بن مزاحم المروزي ، وأبو نعيم الفضل بن دكين ، وبشر ابن القاسم ، وسعيد بن أوس ، وابراهيم بن سليمان ، وحسان ابن ابراهيم ، ومسلم بن ابراهيم ، وأكثم والد يحيى ، والحسن ابن الوليد ، ومحمد بن أعين ، وعبد الله بن أبي رزمة ، ومحمد بن وهب ، وعمر بن الزجاج ، وعبد الله بن داود الخريبي ، وخالد بن الحارث الحافظ ، وعبد الواحد بن زياد وغيرهم من حملة العلم في الأمصار .



وروى الطحاوى والدولابى : ان أبا عاصم النبيل كان يختلف الى زفر ، وكان ثمة رجل آخر يكنى أبا عاصم رث الهيئة يختلف الى زفر أيضا • فجاء أبو عاصم بضحاك بن خلد يستأذن على زفر ، فخرجت جارية لزفر ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا أبو عاصم • فدخلت الى مولاهما فقالت : أبو عاصم بالباب • فقال أيهما هو ؟ فقالت النبيل منهما ، فأذنت لى فدخلت • فقال لى زفر يا أبا عاصم قد لقبتك الجارية بلقب لا أراه يفارقك أبدا • لقبتك بالنبيل • فلزمنى هذا اللقب • وقال ابن أبى العوام : حدثني محمد بن أحمد بن الأشعث قال سمعت يزيد بن سنان يقول سمعت أبا عاصم يقول مثله سواء آه •

وفى المناقب الكردية عن ابن المبارك انه سمع زفر يقول : (نحن لا نأخذ بالرأى ما دام اثر • فاذا جاء الأثر تركنا الرأى آه) وعن والد يحيى بن أكثم (رأيت وكيعا يختلف الى زفر بالغدوات والى أبى يوسف بالعشيات ثم ترك أبا يوسف ثم جعل كل اختلافه اليه لأنه كان أفرغ • وكان يقول : الحمد لله الذى جعلك خلفا لنا عن الامام ولكن لا يذهب عنى حسرة الامام) وعن الفضل بن دكين : (لما مات الامام لزمت زفر لأنه كان أفقه أصحابه وأروعهم) وعن الحسين بن الوليد (انه كان أصلب أصحاب أبى حنيفة وأدقهم نظرا) •

نماذج من اقوال زفر واجوبته فى المسائل

روى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن محمد بن الحسن بن مرداس عن أبى بكرة العطار عن أبى عاصم النبيل قال قال بن الهذيل : (من قعد قبل وقته ذل) يعنى من جعل لنفسه مجلسا خاصا لنشر العلم قبل أن يتكامل فى العلم فضحته شواهد الامتحان وتكشف جهله بأخطائه فى أجوبة المسائل ، وكم من ناشئ يعتريه الغرور فيظن بنفسه الاستغناء عن أستاذه فيستقل بمجلس فى العلم قبل أوانه ، ثم يعود الى رشده فيرجع الى ملازمة شيخه •

وبه الى ابن مرداس عن زيد بن أخزم عن أبي عاصم عن زفر في رجل باع من رجل جارية بألف درهم على أن ينقده الثمن فيما بينه وبين ثلاثة أيام والا فلا بيع بينهما قال : البيع فاسد • وروى ابن أبي العوام عن الطحاوي عن أبي العباس الايلي عن زيد بن أخزم عن عبد الله بن داود : سألت زفر بن الهذيل عن قرض الخبز فقال لي : لا يجوز الا وزنا • وروى ابن أبي العوام عن محمد بن عبد الله بن سعيد البصري عن اسحاق بن ابراهيم الشهيدى عن يحيى بن يمان عن سفيان عن زفر عن قيس بن حنتر قال : مثل عسر بن عبد العزيز في بنى أمية كمثل مؤمن آل فرعون • وروى ابن أبي العوام عن الطحاوي عن ابراهيم بن مرزوق عن محمد بن عبد الله الانصارى عن الأشعث الحمراى عن عبد الواحد ابن صبرة قال كنت عند القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعندهما اياس بن معاوية فسألهما رجل عن رجل قال لامرأته (أنت طالق ان) • فلم يدريا ما يجيبان به فقالا أفته يا أبا وائلة ، فقال اياس : هذا رجل أراد أن يطلق امرأته فلم يفعل • قال الأنصاري : فذكرت ذلك لزفر ابن الهذيل فقال : أخطأ اياس هذا رجل طلق وأراد أن يستثنى فلم يفعل • وروى ابن أبي العوام عن أبي بكر محمد بن هارون بن حسان البرقى عن بكر بن القاسم عن يحيى بن المغيرة القرشى عن سعيد بن أوس • قال : سمعت زفر يقول في رجل أسقط سجدة من ركعة فاستوى قائما قبل أن يفتح فاتحة الكتاب : انه يخر ساجدا ثم يعود الى استئناف عمله • وروى ابن أبي العوام عن الطحاوي عن بكار بن قتيبة عن هلال بن يحيى قال سألت أبا يوسف عن رجل له مائتا درهم حال عليها حولان قال في الحول الأول خمسة دراهم ولا شيء عليه في الحول الثاني فقلت له فان زفر يقول : ان عليه عشرة دراهم • فما حجتك عليه ؟ قال : ما حجتى على رجل يزعم في مائتى درهم أربعمائة درهم • قال بكار : تكرر الأحوال عليها •

وقال أبو تعيم الاصبهاني في تاريخ اصبهان في ترجمة زفر : رجع عن الرأى وأقبل على العبادة أه • لكن هذا وهم منه لأن الذى ترك الرأى وأقبل على العبادة هو صديقه داود الطائى كما سبق وأما زفر

نفسه فممن جمع بين الفقه والعبادة • والرأى المستمد من الكتاب والسنة ليس بشيء يرجع عنه وإنما الذى يستحق الهجر هو الرأى المستند الى الهوى دون الكتاب والسنة وأصحابنا براء من ذلك • وزفر عاش فقيها يستعمل الرأى واليقظة فى الفهم ومات فقيها ذا بصارة فى الرأى والفقه ولم يكن يرى أن الرأى والفهم فى دليل الحكم مما يتاب منه •

ومن الدليل على ذلك ما حدثه ابن أبى العوام عن الطحاوى عن ابن أبى عمران عن أبى نعيم الفضل بن دكين : دخلت على زفر وقد احتضر وهو يقول : فى حال لها مهر وفى حال لها ثلث مهر • أهكذا يكون من رجع عن الرأى ! رضى الله عنه •

وساق أحمد بن محمد بن سعيد التميمى عن عبد الرحمن بن مالك ابن مغول — كما رأيت بخط الحافظ البرزالى : (جاء رجل الى أبى حنيفة فقال : انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ قال : المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقته • ثم جاء الى سفيان الثورى فقال : يا أبا عبد الله انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ • قال : اذهب فراجعها فان كانت قد طلقته لم تضرك المراجعة شيئا • ثم أتى شريك بن عبد الله فقال يا أبا عبد الله اتى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ قال : اذهب فطلقها ثم راجعها ثم أتى زفر بن الهذيل فقال : يا أبا الهذيل انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى أطلقت امرأتى أم لا ؟ قال : هل سألت غيرى قال نعم أبو حنيفة ، قال فما قال لك ؟ قال المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقته • قال الصواب ما قال فهل سألت غيره ؟ قال : سفيان الثورى • فما قال لك ؟ قال اذهب فراجعها فان كانت قد طلقته فقد راجعتها وان لم تكن طلقته لم تضرك المراجعة شيئا • قال : ما أحسن هذا قال فهل سألت غيره ؟ قال : شريك بن عبد الله قال : فما قال لك ؟ قال : اذهب فطلقها ثم راجعها • قال : فضحك زفر ثم قال : أضرب لك مثلا : رجل مر بشعب يسيل ماء فأصاب ثوبه • قال أبو حنيفة : ثوبك طاهر وصلاتك تامة حتى

تستيقن أمر الماء ، وقال لك سفيان : اغسله فان بك نجسا فقد طهر
وان بك نظيفا زاده نظافة ، وقال لك شريك : اذهب فبل عليه ثم
اغسله أه . وتلك نماذج من آرائه وأجوبته .

منع زفر العامة من الخوض في مضائق المباحث الكلامية

أبنا ابن أبي العوام عن الدولابي عن محمد بن شجاع عن الحسن
بن زياد سمعت زفر بن الهذيل وسأله رجل فقال له : القرآن كلام الله .
فقال له الرجل أمخلوق هو ؟ فقال له زفر : (لو شغلك فكر في مسألة
أنا فيها أرجو أن ينفعني الله بعملها لشغلك ذلك عن ذلك الذي فكرت
فيه ، والذي فكرت فيه ، والذي فكرت بلا شك يضرك ، سلم الله عز وجل
ما رضى به منك ولا تكلف نفسك ما لا تكلف) .

وبه عن الحسن بن زياد وقد قال له رجل من أهل بغداد أكان زفر
قياسا فقال له الحسن : وما قولك قياسا ؟ هذا كلام الجاهل ، كان عالما .
فقال الرجل : أكان زفر نظر في الكلام ؟ فقال سبحانه الله ما أسخفك !
تقول لأصحابنا أنهم نظروا في الكلام ، وهم يبيوت العلم والفقه ، انما يقال
نظر في الكلام فيمن لا عقل له ، وهؤلاء كانوا أعلم بحدود الله عز وجل
وبالله من أن يتكلموا في الكلام الذي تعنى وما كان يهمهم غير الفقه^(١)
والافتداء بمن تقدمهم أه .

ومعنى ذلك زجر العامة عما لا قبل لهم به من دقائق علم الكلام
خوفا عليهم من الزلل والافس ، ولا فهو من أئمة علم أصول الدين جادل الناس
في مسائله فجادلهم ، ويشهد لذلك ما ذكره جمال الدين أبي يعلى
أحمد بن مسعود الاصبهاني باسناده عن خالد بن زيد العمري أنه قال :
(كان أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر وحمام بن أبي حنيفة قوما

(١) والفقه : معرفة النفس ما لها وما عليها فيشمل باطلاقه العمل
والعقيدة والخلق عند أبي حنيفة بل كان يسمى ما يتعلق بتمحيص العقيدة
الصحيحة الفقه الأكبر وكان الذي ياباه أصحابه هو الخوض في مشارات
الشبه في الاعتقاد عند العامة بدون حجة قائمة من الكتاب والسنة والنظر
العقلي الصحيح (ز) .

قد خصموا بالكلام الناس ، وهم أئمة العلم) كما ذكره صاحب الفتاوى
البرازية فى المناقب (١ - ٣٨) •

نشر زفر لذهب أبى حنيفة فى البصرة

وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن أبى خازم القاضى سمعت
أحمد بن عبيدة يقول قدم يوسف بن خالد السمنى البصرة من عند
أبى حنيفة ، فكان يأتى عثمان البتى وهو رئيسها وفقهها فيجاذب أصحابه
المسائل ؛ ويذكر لهم خلاف أبى حنيفة إياهم فيضربونه ويسبون
أبا حنيفة فلم يزالوا كذلك حتى قدم زفر بن الهديل البصرة فكان أعلم
بالسياسة منه فكان يأتى حلقة البتى فيسمع مسائلهم فإذا وقف على الأصل
الذى بنوا عليه تتبع فروعهم التى فرعوا على ذلك الأصل ، فإذا وقف
على تركهم الأصل طالب البتى حتى يلزمه قوله ويبين له خروجه عن أصله
فيعود أصحابه شهودا عليه بذلك ، فإذا وقف أصحاب البتى على ذلك
واستحسنوا ما كان منه قال لهم : ففى هذا الباب أحسن من هذا الأصل
ويذكره لهم ويقيم الحجة عليهم فيه ويأتيهم بالدلائل عليه ويطالب البتى
بالرجوع إليه ويشهد أصحابه عليه بذلك ثم قال لهم ، هذا قول
أبى حنيفة • فما مضت الأيام حتى تحولت الحلقة الى زفر وبقي البتى
وحده أهـ . هذا فى رحلة زفر الى البصرة فى حياة امام أهل البصرة
عثمان بن مسلم البتى رضى الله عنه •

وأما رحلته الى البصرة بعد وفاة البتى وأبى حنيفة واستقراره فيها
أبأ الصيمرى عن أبى الحسن العباس بن أحمد بن الفضل الهاشمى عن
أحمد بن محمد المسكى عن على بن محمد النخعى عن أبى خازم القاضى
عن بكر (العصى) عن هلال بن يحيى قال : رحل يوسف بن خالد
السمنى من البصرة الى الكوفة فتفقّه عند أبى حنيفة فلما أراد الخروج
الى البصرة قال له أبو حنيفة : اذا حضرت الى البصرة فافك تجيء الى
قوم قد تقدمت لهم الرياسة فلا تعجل بالعود عند اسطوانة واتخاذ
حلقة ثم تقول قال أبو حنيفة وقال أبو حنيفة فافك اذا فعلت ذلك لم تلبث

حتى تمام • قال فخرج يوسف فأعجبته نفسه وجلس عند اسطوانة وقال : قال أبو حنيفة • قال فأموه من المسجد فلم يذكر أحد أبا حنيفة حتى قدم زفر البصرة فجعل يجلس عند الشيوخ الذين تقدمت لهم الرئاسة فيحتج لأقوالهم بما ليس عندهم فيعجبون من ذلك ثم يقول ها هنا قول آخر أحسن من هذا فيذكره ويحتج له ولا يعلم أنه قول أبي حنيفة فإذا حسن في قلوبهم قال : انه قول أبي حنيفة فيقولون هو قول حسن لا تبالى بمن قال به فلم يزل بهم حتى ردهم الى قول أبي حنيفة رضى الله عنه أه •

سوء السياسة في العالم يحرمه نشر العلم واستفادة المجتمع منه ولو أخذ يوسف السمتي بوصايا أبي حنيفة في معاشرة الناس وسياستهم لما أودى ولا طعن في دينه ولا رمى ببذع فظيعة ليس هذا موضع شرحها^(١) • ووصية أبي حنيفة ليوسف السمتي مدونة في كتب المناقب وقد قام بتحقيقها الأستاذ الغيور المفضل الشيخ ابراهيم المختار الزيلعي الجبرتي حفظه الله وهي مطبوعة في مطبعة السيد مصطفى البابي الحلبي ، وهي من عيون الوصايا ، تعلم القارئ بالارشاد بين الناس طرق معاشرتهم وسياستهم لينجح في ارشادهم وتعليمهم : وقد روى الصيمري عن عبد الله بن محمد الأسدي عن أبي بكر الدامغانى عن الطحاوى عن ابن أبي ثور عن سليمان بن عمران عن أسد : قدم زفر البصرة فدخل مسجدها فانقضت اليه حلق أصحاب التابعين •

زفر في طبقة المجتهد المطلق في التحقيق

وان حافظ على اقتسابه الى أبي حنيفة

بعد أن علم أن زفر مع أبي يوسف كقرى رهان في الاجتهاد

(١) أصعبها ما عند ابن أبي حاتم لكن ليس عليها مسحة الثبوت ، ومثله انى ينكر القيامة والميزان؟! راجع تهذيب التهذيب ، وكان في حد ذاته عالما جليلا وكفى دليلا على جلالة قدره أخذ الامام الشافعى عنه رغم تقولات المتقولين فيه ، واخرج له ابن ماجه وله احاديث كثيرة مخرجة في تاريخ أصبهان لأبى نعيم وغيره (ز) •

لا يبقى وجه للالتفات الى قول من ظن أن زفر في عداد المجتهدين
 في المذهب كما أوضحنا ذلك في غير موضع . وانما وقع في ذلك الظن
 من رأى كثرة تنسويه زفر بأقوال الامام الأعظم مع ان ذلك التنويه
 والموافقة لإرائه انما كان بمعرفته لدليل الحكم كما عرف هو الا تقليدا له .
 قال ابن أبي العوام حدثني محمد بن أحمد بن حماد سمعت محمد
 ابن شجاع سمعت أبا عاصم الضحاك بن مخلد يقول سمعت زفر يقول:
 ما خالفت أبا حنيفة في قول الا وقد كان أبو حنيفة يقول به . وحدث
 ابن أبي العوام أيضا عن الطحاوي عن ابن أبي عمران سمعت سوار
 ابن عبد الله العنبري القاضي - يعني الحفيد - يقول سمعت أبا عاصم
 يقول قال زفر بن الهذيل : كل أقوالى هذه قد قالها أبو حنيفة قبلى ثم
 وقف منها على أشياء لم أقف أنا عليها فخالفتها لما وقف عليه منها وثبت
 أنا عليها . قال أحمد بن أبي عمران فأنكرت ذلك ، فأتيت محمد بن شجاع
 فحدثته بذلك فقال لى : مكافك ثم دخل منزله وخرج وفى يده كتاب
 فقرأ على منه هذه الحكاية عن أبي عاصم كما سمعنا من سوار
 العنبري أه . وفى الكردية أن يحيى بن أكثم روى عن والده أنه سمع
 زفر يقول (لم أجترىء أن أخالف الامام بعد وفاته لأنى اذا خالفته فى
 حياته وأبرزت الدليل وأتيت به ألزمنى بالحق الظاهر من ساعته
 وردنى الى قوله فأما بعد وفاته فكيف أخالفه ؟ وربما لو كان حيا وحاج
 لردنى الى قوله) . وهذا ليس بتقليد له بل سكوت عما لا يعلم دلياه
 واطمئنان الى الدليل وفهم صحيح للدليل فيما يعلم وهو الاجتهاد بعينه ،
 وأبو حنيفة هو الذى كان ينهى أصحابه عن التقليد ويأمرهم بابداء
 ما عندهم من الحجج فيناقشهم فيها حتى يستقر الحق فى نصابه ، وكان
 لأصحابه مقام عظيم فى سرد الدلائل وتحقيق المسائل بل كان أبو حنيفة
 يقول لا يحل لأحد أن يفتى بقولى ما لم يعلم من أين قلته ، ومع ذلك
 كله كان لزفر مخالفات فى الأصول والفروع مدونة فى كتب القوم
 فلا يكون تأدب زفر تجاه استاذه ومحافظة على الاتساق اليه وعرفائه
 لجميله عليه مما ينزل مقامه فى الاجتهاد المطلق على حدة ذهنه فى قياس
 المسائل وقوة ضبطه للدلائل واتقانه للحديث كما أقر بذلك أمثال

ابن حبان : وورعه البالغ معروف عند الجميع رضى الله عنه وعن
أساتذته وأصحابه أجمعين .

ولزفر نحو سبع عشرة مسألة يفتى بها في المذهب عند نقاد المذهب
ألف فيها السيد أحمد الحموى شارح الأشباه والنظائر رسالة سماها
(عقود الدرر فيما يفتى به في المذهب من أقوال زفر) وشرحها الشيخ
عبد الغنى النابلسي ، ومحصها ابن عابدين ، وانفرادات زفر في المسائل
مدونة في منظومة النسفى في الخلاف وشرحها بيسط . وقد أشار
أبو زيد الدبوسى فى تأسيس النظر فى فصل خاص الى محالقات زفر فى
الأصول والفروع كما أشير الى آرائه الخاصة فى الأصول فى كتب
الأصول المبسوطة كشامل الأتقانى وبحر الزركشى وشرح أصول البزدوى
خاصة ، فان كان شأن المجتهد المطلق الاتفراد بمسائل فى الأصول والفروع
فها هو زفر له انفرادات فى الناحيتين على ان الموافقة لامام فى رأى فى
بعض مسائل الأصول أو الفروع عن علم بأدلتها لا تفضل بالاجتهاد المطلق
أصلا كما أوضحت ذلك فى كثير من المواضع والله سبحانه أعلم .

كلام اهل النقد فى زفر

قال الذهبى فى الميزان : أحد الفقهاء والزهاد صدوق وثقة غير واحد
وأن معين وقال ابن سعد : لم يكن فى الحديث بشئ . هـ . لعله يريد قلة
حديثه لأنه يقال : فلان لم يكن فى الحديث بشئ . بمعنى أنه قليل
الحديث — يعنى فى نظر القائل — كما فى الرفع والتكميل لعبد الحى
الكنوى ، وهذا ربما يسلم بالنظر الى علم ابن سعد فقط ، والا فزفر
على علو منزلته فى الاجتهاد حافظ معروف بالاتقان عند ابن حبان وغيره .

وقال ابن حجر فى اللسان : قال ابن أبى حاتم قرئ على عباس
الدورى وأنا أسمع سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين وذكر عنده زفر فقال :
كان ثقة مأمونا . قال العباس وسمعت يحيى — وهو ابن معين — يقول
هو ثقة مأمون . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان متقنا حافظا لم
يسلك مسلك صاحبه وكان أقيس أصحاب أبى حنيفة وأكثرهم رجوعا الى

الحق توفي بالبصرة والاية أبى جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو فى حديث ابن أبى الهيثم أهـ . ثم لخص ابن حجر كلام العقيلي وقال : قال أبو موسى محمد بن المشي ما سمعت عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن زفر شيئا قط ، وقال أيضا حدثنا معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار^(١) القاضي ف جاء الغلام فقال : زفر بالباب فقال : زفر الراى لا تأذن له ، فانه مبتدع . ف قيل له ابن عمك قدم من سفر ولم تأتته ومشى اليك فلو أذنت له . فأذن له فما كلمة كلمة حتى خرج .

وقال بشر بن السرى ، ترحمت يوما على زفر وأنا مع سفيان الثوري فأعرض بوجهه عنى أهـ . ثم ذكر ابن حجر عن أبى الفتح الأزدى : زفر غير مرضى المذهب والراى أهـ . وذكر عن ابن عدى أنه قال الحارث ابن مالك ان أول من قدم البصرة برأى أبى حنيفة زفر وسوار بن عبد الله على القضاء فاستأذن عليه فحجبه وسعى بى اليه فقلت : أصلحك الله ان زفر رجل من أهل العلم ومن العشيرة قال : أما من العشيرة فنعم . وأما من أهل العلم فلا ؛ فانه أانا بدعة : برأى أبى حنيفة . فقلت : انه يجب أن يتزين بمجالسة القاضي . قال فائذن له على أن لا يتكلم معنا فى العلم أهـ .

فاذا تهرب سوار على ضيق دائرة روايته من كلام زفر معه فى العلم لا يتعجب ؛ لأن مثل الحجاج بن ارطاة القاضي المحدود فى الحفاظ على سعة دائرة روايته كان يحجب زفر عنه تهربا من كلامه معه فى العلم وأما عد رأى أبى حنيفة بدعة فما يردده عمل فقهاء الأمة من الصحابة والتابعين كما تجد مصداق ذلك فى « الفقيه والمتفقه » للحطيب البغدادي و « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ، ومن أنكر الفهم فى الكتاب والسنة ، ورد النظر الى النظر فهو المبتدع ، كما ذكرنا ذلك فيما علقناه على « النبذ » لابن حزم .

(١) استمر سوار على قضاء البصرة من سنة ١٣٨ هـ الى وفاته فى ذى القعدة سنة ١٥٦ هـ كما ذكره ابن حبان ثم خلفه ابنه عبد الله فى قضاء البصرة فلا يتصور تولى زفر قضاء البصرة لا فى حياة أبى حنيفة ولا بعد وفاته (ز) .

وأما حال سوار القاضى هذا - وهو الجد لا الحفيد - فلم يخرج عنه واحد من أصحاب الأصول الستة على تقديم زمنه ، وفيه يقول شعبة : ما تعنى فى طلب العلم وقد ساد^(١) ، وقال الثورى : ليس بشيء . وذكره العقيلي فى الضعفاء ، وقال ابن سعد : قليل الحديث . وقال الذهبى : روى القليل عن بكر المزنى والحسن أ هـ وسلطان مثله يكون بقوة الحكم إلا بقوة العلم ، وقد روى عنه الله لمبا قيل له : لو نظرت فى شيء من كلام أبى حنيفة وقضاياه . قال : كيف أنظر فى كلام رجل لم يؤت الرقى فى دينه ؟ . فمن يكون زهد فى الحديث كما سبق يكون زهد فى الفقه ورأى أبى حنيفة وأصحابه كما ترى ، على أن زفر حيث حول وجوه المتفقهين بالبصرة الى فقه أبى حنيفة كان رؤوس أهل البصرة من طوائف الفقه ، لا يعتفرون ذلك لزفر ، ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء . ومثل سوار فى ضيق دائرة عمله وكلام أهل النقد فيه لا يتحاكم اليه فى مثل زفر بعد أن تواطأت القلوب مع الألسن عند جمهرة النقاد على الشناء عليه خيرا والشهادة له بالحفظ والاتقان ودقة الفهم وشدة الورع .

وأما أبو الفتح الأزدى فلا يكون مرضى المذهب والرأى عنده إلا من كان رافضا مثله فى الرأى والمذهب ، والحاصل أن الجرح غير المفسر لا يلتفت اليه إزاء صرائح التوثيق من أهل الشأن ، وأما حكاية عدم رواية ابن مهدى عن زفر فشهادة على النفى وعلى فرض ثبوتها لا يخلو ابن مهدى من تأثير الثورى عليه وهو ضيفه النازل عنده المختفى لديه سنين ، كما ذكرت فى لفت اللحظ ، حيث كان عنده بعض انحراف عن أبى حنيفة وأصحابه فى بعض الروايات كما هو شأن التنافس بين الأقران على أن رسته عبد الرحمن بن عمر ظنين فى ابن مهدى ، كما ترى ذلك فى الميزان وغيره ، وبشر بن السرى ممن أطلوا الكلام فيه ، ولا مانع من أن يستاء الثورى من زفر ، وقد بلغه ما قاله فى جامع سفيان الثورى بالبصرة ، وذلك ما حكاه عكرمة بن عمار أنه لما قدم زفر بالبصرة ونقل اليه جامع سفيان قال : هذا كلامنا يسب الى غيرنا أ هـ والكلام

(١) وقد ورد : تعلموا قبل أن تسودوا (ز) .

بين الأقران مما لا يلتفت إليه كثير عند أهل النقد ، راجع ما ذكرناه في
الثورى فى التائب « ١١٠ » .

وأما قول أحمد بن المعدل :

(ان كنت كاذبة الذى حدثتى) فعليك اثم أبى حنيفة أو زفر
المائلين الى القياس تعمدوا والراغبين عن التمسك بالخبر
فنفسه مصدور من تضايقه بالبصرة من أصحاب زفر القائمين بنشر
فقه أبى حنيفة هناك تشرا مكتسحا لآراء سائر الطوائف ، لكن الواجب على
الهاجى ان يعلم ان الهجوم انما يكب الهاجى فى النار ، من غير أن يضر
الا فى شيء ، وأن التحاكم فى المسائل الخلافية الى الحجج الناهضة
لا الى الشغب الفارغ ، والاقذاع المزرى ، فما ذنب زفر ؟ حتى يستعمل
الولوغ فى دمه ودم أستاذه بهذه الصورة البشعة ، ولم يريا الانتقار ،
ولا قدما القياس على صحاح الآثار ، ولا فتحا باب الاسترسال فى نقض
الشرع باسم المصلحة ، ولا كانا يستصحبان من يغنى لهما فى مجالس
العلم ، وأنت تعلم تفقه ابن المعدل على شيخه القادم الى البصرة ومعه
من يغنيه فزهد فيه أهل العلم بالعراق ، وهو خلفه هناك فى فقهه
فمثله لو سكت لكان أستر له ولطائفته . والمصراع الأول مضمن من شعر
لحسن رضى الله عنه ، وأخوه عبد الصمد^(١) اذا تحاكما اليه فى أخيه
نراه يقول فيه :

أضاع الفريضة والسنة فتاه على الانس والجنة
كان لنا النار من دونه وأفرده الله بالجنة
وينظر نحوى اذا زرته بعين حساة الى كنهه
وهذا هو قول أخيه فيه

وقد ذكر ابن عبد البر فى « الاقتاء » ان أبا جعفر الطحاوى لما سمع
البيتين (لأحمد بن المعدل قال) : ودوت أن لى حسناهما وأجورهما
وعلى اثمهما أ ه .

(١) يقول الذهبى فى المشتبه : أحمد بن المعدل - بفتح الذاال المشددة
من ائمة المالكية تفقه عليه أسماعيل القاضى . وأخوه عبد الصمد
ابن المعدل شاعر بديع القول أ ه (ز) .

ومن الناس من لم يكتف بذلك التهجم فى البيتین حتى غیر المصراع الثالث وقال : (الوارثین على القياس تمردا) •
وقد عارض كثير من أصحابنا البيتین ، وأقرب ما قيل فى المعارضة الى الأدب قول الحافظ القاسم بن قطلوبغا :

كذب الذى نسب المآثم للذى قاس المسائل بالكتاب وبالأثر
إن الكتاب وسنة المختار قد دلا عليه فدع مقالة من قشر
وأدلة القياس من الكتاب والسنة مبسوبة فى كتب الأصول المبسوبة
وفى كثير من سائر الكتب كما سبق • سامحهم الله وإيانا بمنه وكرمه
ووقانا شر التعصب والتحزب ووفقنا لافزال الناس منازلهم بأعدل
الموازن • وتفایر العلماء وتحاسدهم مما أدى الى رد أقوال بعضهم
فى بعض عند أهل النقد ولا سيما عند اختلاف المذاهب كما هو معروف •
فنسأل الله الصون من متابعة الهوى •

وذكر العقيلي عن عبد الرحمن بن محمد عن رسته عن ابن مهدي
عن عبد الواحد بن زياد قال : قلت لزفر بن الهذيل (عطلم حدود الله
كلها فقلنا ما حجتكم ؟ فقلتم : ادرؤوا الحدود بالشبهات حتى اذا صرتم
الى أعظم الحدود وقول النبى صلى الله عليه وسلم : لا يقل مؤمن بكافر ،
فعلتم ما نهيتم وتركتم ما أمرتم به • هذا أو نحوه من الكلام) ولفظ
عبد الواحد فى رواية الطحاوى عن ابن أبى عمران عن أبى عبيد عن
ابن مهدي (قلت لزفر يقولون انكم تدرؤون الحدود بالشبهات وقد جئتم
الى أعظم الشبهات فأقدمتم عليه قال : وما هو ؟ قلت : المسلم يقتل
بالكافر • قال فاشهد أنت على رجوعى عن هذا أه) • على أن هناك
أثارا عن عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ومراسيل يؤيد بعضها بعضا ،
مع كون المراد بالكافر من لا عهد له بدليل ذكر (ولا ذو عهد فى عهده)
أى بكافر غير معاهد فلا يكون دليل المذهب ضعيفا • راجع جواهر
الزبيدي (٢ - ١٧٥) وموضع العبرة فى عمل العقيلي هنا تصرفه فى
الرواية فقارن بين الروایتين ثم لحكم •

هل ولي زفر قضاء البصرة ؟

قال الحافظ عبد القادر القرشي : قال أبو عمر كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة في الحديث أ هـ • وذكر القرشي قبل ذلك عن أبي نعيم : كان زفر ثقة مأمونا ؛ دخل البصرة في ميراث أخيه فتشبهت به أهل البصرة فمنعوه الخروج منها أ هـ ثم قال : وتولى قضاء البصرة أ هـ وهذا متابعة منه لابن عبد البر حيث قال في الالتقاء :

« وكان زفر كبيرا من كبار أصحاب أبي حنيفة وأفقهم ، وكان يقال انه كان أحسنهم قياسا ، ولي قضاء البصرة ، فقال له أبو حنيفة : قد علمت ما بيننا وبين أهل البصرة من العداوة والحسد والمنافسة ، وما أظنك تسلم منهم ، فلما قدم البصرة قاضيا اجتمع اليه أهل العلم وجعلوا يناظرونه في الفقه يوما بعد يوم ، فكان اذا رأى منهم قبولا واستحسانا لما يجيء به قال لهم : هذا قول أبي حنيفة فكانوا يقولون : أو يحسن أبو حنيفة هذا ؟ فيقول لهم : نعم وأكثر من هذا ، فلم يزل بهم اذا رأى منهم قبولا لما يحتاج به عليهم ورضا به وتسلينا له قال لهم : هذا قول أبي حنيفة • فيعجبون من ذلك ، فلم تزل حاله معهم على هذا حتى رجع كثير منهم عن بغضه الى محبته ، والى القول الحسن فيه بعد ما كانوا عليه من القول السيء فيه ، وكان زفر قد خلف أبا حنيفة في حلقة من اذ مات ، ثم خلف بعده أبو يوسف ، ثم بعدهما محمد بن الحسن ، ومات زفر سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة أ هـ • »

ويخشد في دعوى توليه قضاء البصرة استمرار قضاء سوار ابن عبد الله العنبري بالبصرة من سنة ١٣٨ هـ الى وفاته في ذى القعدة سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن حبان وتولى ابنه عبد الله بن سوار قضاء البصرة بعد وفاة أبيه ، فيكون القرشي وابن عبد البر واهمين في ذلك ، وكان لزفر قرابة بالبصرة فزارهم في عهد عثمان البتي المتوفى سنة ١٤٣ هـ فجرى بينهما ما سبق ذكره بأسائده • ثم رحل الى البصرة بمناسبة وفاة أخيه بعد وفاة أبي حنيفة فتمسك أهل البصرة به ، فأقام هناك ينشر العلم الى أن مات بالبصرة وسبق بيان مبلغ ما أودى به بسبب امتناعه عن قبول القضاء ، رحمه الله وأرضاه • ولابن عبد البر بعض أغلاط في تراجم المشاركة •

وفاة زفر في البصرة وكلام اهل العلم في زهده في الدنيا

سبق بيان سبب اتصال زفر بأبي حنيفة وملازمته لمجلسه أكثر من عشرين سنة وقد روى الصيمري عن عبد الله بن محمد الشاهد عن مكرم عن أحمد بن محمد عن مليح بن وكيع عن أبيه قال : لما مات أبو حنيفة أقبل الناس على زفر فما كان يأتي أبا يوسف الا نفر يسير ، النفسان والثلاثة . وكان زفر يكنى بأبي خالد وبأبي الهذيل وكان من أهل أصبهان ومات أخوه فتزوج بعده بامرأة أخيه فلما احتضر دخل عليه أبو يوسف وغيره فقالوا له ألا توصي يا أبا الهذيل فقال : هذا المتاع الذي ترونه لهذه المرأة ، وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم هي لولد أخى وليس لأحد على شيء والا لى على أحد شيء ، وكان زفر شديد العبادة والاجتهاد . وقال الصيمري أخبرنا عمر بن ابراهيم عن مكرم عن محمد بن أحمد ابن يعقوب السدوسي قال حدثنا جدى - وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت المالكى - قال : زفر بن الهذيل عنبرى من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث ونظر في رأى فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة ، وأوصى الى خالد بن الحارث (الحافظ) وعبد الواحد بن زياد ، وكان أبوه الهذيل يلى الأعمال ومات وهو والى أصبهان ، وكان أخوه صباح بن الهذيل على صدقة بنى تميم ، وزفر هو زوج أخت خالد ابن الحارث ومات فى أول خلافة المهدي سنة ثمان وخمسين ومائة هـ . وكلام يعقوب بن شيبة هذا لا غبار عليه الا أن جعل وفاته فى أول خلافة المهدي فيه وقعة لأنه نص ابن خلكان وغيره على أن وفاته فى شعبان من سنة ١٥٨ هـ فيكون وفاته قبل وفاة المنصور بأربعة أشهر وسبق أن قلنا من ثقات ابن حبان وفاته فى ولاية أبى جعفر المنصور ، وقال أحمد بن خلف وعبد الباقي ابن قانع فى رواية المربزبانى عند الصيمري أن زفر مات سنة ١٥٨ هـ وفيها مات المنصور واسرائيل ابن يونس . وحكى أبو خازم عن بكر العمى أن زفر توفى سنة ١٥٨ هـ وهو ابن ثمان وأربعين سنة كما ذكره ابن أبى العوام .

وعن بشر بن القاسم سمعت زفر يقول : لا أخلف بعد موتى شيئا أخاف عليه الحساب فلما مات قوم ما فى بيته فلم يبلغ ثلاثة دراهم ،

ولما احتضر قال له أهو يوسف وغيره أوص فقال هذا المتاع لزوجتي وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم لولد أخى - وكان تزوج امرأة أخيه بمدة وفاته - وأما أنا فليس لى على أحد شيء ولا لأحد على شيء كما فى مفتاح السعادة والمناقب الكردية ، وعن ابراهيم بن سليمان قال : كنا اذا جالسنا زفر لى نقدر أن نذكر الدنيا بين يديه فاذا ذكرها واحد منا قام من المجلس وتركه وكنا نتحدث فيما بيننا ان الخوف قتله ، كما فى الكردية •

وقال النووى فى تهذيب الأسماء : كان جامعا بين العلم والعبادة وكان صاحب حديث ثم غلب عليه رأى قال ابن أبى حاتم : روى عن الحجاج بن أرطاة وروى عنه أبو نعيم (الفضل بن دكين) وحسان ابن ابراهيم وأكثم بن محمد (والد يحيى) قال أبو نعيم كان زفر ثقة مأمونا ، دخل البصرة فى ميراث أخيه فتثبت به أهل البصرة فمنعوه الخروج منها قال يحيى بن معين : زفر صاحب رأى ثقة مأمون قال ابن قتيبة : توفى بالبصرة أ ه •
ومما قيل فى مدحه رضى الله عنه :

قوس القياس به كانت موفرة	ما عاش والآن أضحت مالها وتر
لقد حوى فى قياس الفقه مرتبة	علياء قد قصرت من دونها الفكر
قياسه قد صفا فى بحر خاطره	وحاسدوه لشوم الخلق قد كدروا
غذا لكسر قياس الناس جابره	وهم لحيدهم حقا قد انكسروا
عيونهم فى الليالى بالكرى كحلت	وعينه كحلها فى ليلة السمر
أنى يسلوبه فى فقه له أحد ؟ !	هل يستوى الذهب الابرز والحجر ؟

وبهذا القدر نكتفى فى بيان سير هذا الامام العظيم رفع الله مقامه فى الجنة ونفع بعلومه الأمة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين •

قد فرغ الفقير اليه تعالى محمد زاهد بن الحسن بن على الكوثرى من تحرير هذه الرسالة بتوفيق الله تعالى عصر يوم الأحد السابع عشر من شهر رجب الفرد من سنة ١٣٦٨ هـ غفر الله لى ولوالدى ولمشايخى ولسائر المسلمين ونفعنا ببركات العلماء العاملين •

